

إن الأمة التي تنشأ نهضتها على الأخوة القومية...
أمة تستضيء بالانتساب إلى حقيقتها عن
الانتساب إلى أوهامها.

سعادة

آخر الكلام

حرب الإمبريالية ضد الدول المستقلة

د. إبراهيم علوش

الإمبريالية مصطلح يشيع استخدامه في الأدبيات السياسية، لكنه ليس مجرد رديف لتعبير «الاستعمار» كما توحي بعض الكتابات. فالاستعمار، بمعنى احتلال أراضي الغير وإخضاع الشعوب ونهب الثروات، أقدم من الإمبريالية بكثير. أما الإمبريالية فهي أوسع، وأحدث عهداً، وليست مجرد مشروع تأسيس إمبراطورية عالمية كتلك التي أسسها الرومان مثلاً. فالإمبريالية منظومة من علاقات الهيمنة الدولية ذات أبعاد اقتصادية وسياسية وثقافية، لا مجرد ظاهرة عسكرية. نشأت الإمبريالية كمنظومة عالمية، وكمنهج ورؤيا لإخضاع كوكب الأرض، من واقع تطوّر النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية أولاً. فالإمبريالية ليست مجرد استعمار مباشر، بل قد تترك السيطرة العسكرية المباشرة لوكلاء لها في البلدان المفتوحة ما داموا قادرين على إبقاء تلك البلدان ضمن منظومة الهيمنة الإمبريالية، أي كمصدر للمواد الخام، واليد العاملة الرخيصة، وكأسواق وميادين لاستثمارات الشركات الرأسمالية العالمية، والأهم بقاؤها سياسياً وعسكرياً جزءاً مضموناً من الحلف ضد أي دول أو قوى تخرج على تلك المنظومة الإمبريالية.

بعدما نشأت الاحتكارات الكبرى والشركات متعددة الحدود في الدول الرأسمالية المتقدمة، وبات الكوكب بأسره ملعباً، وبعدما بات تصدير رأس المال عبر الحدود، وليس تصدير السلع فحسب، ضرورة حيوية لاستمرار النظام الرأسمالي العالمي بأسره وتوسّعه، بغض النظر عن هوية الدولة التي تقود عجلة ذلك النظام، اتخذ الاستعمار شكلاً إمبريالياً. فالحروب والعدوان الخارجي يهدفان هنا إلى إخضاع الدول المستقلة لمنظومة هيمنة عالمية، وليس إلى استعمار عسكري مباشر ودائم بالضرورة. والشركات الأميركية لم تحصل على العقود الأخيرة للنفط العراقي مثلاً، لكن العراق كتيان تمّ تحويله إلى أشلاء دولة يصعب عليها أن تتخذ لنفسها طريقاً مستقلاً عن الإمبريالية.

في الحالتين، سواء وقع استعمار مباشر ودائم أو لم يقع، فإن الإمبريالية نفسها في آخر عقدين من القرن العشرين، لكن بعد انهيار دول المنظومة الاشتراكية مطلع التسعينات، تحولت تدريجياً مع تحول النظام الرأسمالي العالمي، من نظام يقوم على رأسماليات مختلفة في الدول القومية المختلفة، إلى رأسمالية واحدة عابرة للحدود همّها تفكيك الدول وإضعافها، وإعادة صوغ العالم من جديد، بناء على شروط هيمنتها الجديدة في ما بات يعرف باسم العولمة.

العولمة هي بالطبع اندماج الاقتصادات الوطنية والمحلية في شبكة عالمية واحدة، تسيرها في النهاية مصلحة الرأسمالية العالمية كطليقة وكنظام. المهم، صار العدو الرئيسي لتلك العولمة كل قلعة مستعصية، وكل حركة، وكل حالة سياسية تحاول أن تحط لنفسها طريقاً مستقلاً وأن تنأى بنفسها عن المنظومة الإمبريالية العالمية. ولنلاحظ هنا أن حرب الإمبريالية، دوماً تحت باقطة «الديموقراطية» و«حقوق الإنسان»، هي ضد مفهوم «الاستقلال» و«السيادة»، وأي مشروع للتطور المستقل، وليس ضد الأديان أو الحركات العنصرية في الدول الإمبريالية نفسها، أو ضد أي مشروع إصلاحية محلي، أو ضد أي شيء من هذا القبيل ما دام لا يقف عائقاً في وجه الاندماج «الديموقراطي» في النظام الرأسمالي العالمي.

تظهر النزعة الاستقلالية في قوالب مختلفة، مقصودة أو غير مقصودة، ومن منطلقات عقائدية مختلفة، أو من منطلقات براغماتية حتى، فقد تتخذ شكلاً إسلامياً أو قومياً أو يسارياً... وليس المهم الشكل هنا، أو كم يتفق الغراء أو يختلف مع مجمل رؤى ومواقف وممارسات هذه القوة الاستقلالية أو تلك. المهم فحسب هو كيف يلخص موقف الإمبريالية العالمية من مجموع تلك الحالات الاستقلالية التناقض الرئيسي في عالمنا المعاصر اليوم بين الإمبريالية من ناحية والحركات والدول الثابتة بنفسها عنها من ناحية أخرى، وهذا هو التناقض الأساسي الذي يتبع له كل تناقض آخر.

في المقابل، لا تواجه الإمبريالية مشكلة في تقديم نفسها قوة مدافعة عن الإسلام والمسلمين لتدمير يوغوسلافيا السابقة، وقبل ذلك في خضم الحرب الباردة في أفغانستان وغيرها، ومن ثم أن تعبي الرأي العام ضد الحركات الإسلامية المناهضة للهيمنة الإمبريالية تحت عنوان «الحرب على الإرهاب»، ولا تواجه الإمبريالية مشكلة في التعاون مع يسار يركز على قضايا مطلوبة وإصلاحية أساساً ويهشم التناقض الرئيسي مع الإمبريالية والصهيونية، فالأساس هنا كان وبقية مصلحة الإمبريالية الراهنة في الزمان والمكان المحددين.

أما من جهة الشعوب الساعية إلى التحرر وإلى خط طريقها الخاص نحو التنمية والتطور المستقل، فإن العداء للإمبريالية يجب أن يبقى المنطق الرئيسي لرؤيتها للعالم المعاصر. ولنلاحظ مثلاً أن مفهوم «الاستقلال» لا يعني بالضرورة أن سلوكيات الحركات والقوى المستقلة ستكون دوماً مبدئية وغير مشوبة بأي خلل، ولا يعني أنها لن تدخل البتة في أي مساومات انتهازية، أو حتى قذرة، مع الإمبريالية في أي مفصل من المفصل... بل يعني الاستقلال الإرادة فحسب والقدرة على انتهاز كل طريق مخالف للتعبية للإمبريالية عندما ترى ذلك مناسباً. وبمقدار ما تنتشر هذه القابلية الاستقلالية للخرور على التبعية تضعف المنظومة الإمبريالية، ويقدر ما تنجح الإمبريالية بشل تلك القدرة وتدميرها، تقوى المنظومة الإمبريالية.

ولا معنى لتغيير أو «ثورة» تقود إلى المزيد من التبعية للإمبريالية أو لحلف الناتو...

والغريب أن اللجوء إلى السلاح لم يتم إلا في حالة الدول العربية ذات النزعة المستقلة، مع أن قتل المظاهرين بالمئات بدأ على يد مبارك وبن علي، ولم يؤد ذلك إلى اللجوء للسلاح! ولا يعني ذلك أبداً أن الدول العربية ذات النزعة المستقلة لا يحق للمواطن فيها أن يطالب بحقوقه أو حتى أن يعارض، أو أن يناهض الفساد والاستبداد، ما دام ذلك غير مرتبط بأجندة خارجية أو مشروع تفكيك، ولكن عندما تحظى أي حركة أو شخصية معارضة في دول ذات نزعة مستقلة بالدعم الإمبريالي المكشوف، فإن ذلك يفترض أن يدفعنا إلى طرح الكثير من التساؤلات، خاصة عندما يقترن بالدعم الإمبريالي العسكري المباشر، المترافق مع حملة في وسائل الإعلام الإمبريالية والتابعة لتغيير النظام.



هندي ينجب 127 ولداً من 37 زوجة ويعيشون في منزل واحد

يشكل شاننا زيونغاكا زعيم إحدى الطوائف الهندية التي تسمح بعدد غير محدود من الزوجات، محط جذب للمرشحين إلى الانتخابات بفضل أسرته المكوّنة من 39 زوجة و127 ولداً.

ونشرت صحيفة «ديلي ميل» البريطانية تقريراً مفصلاً عن هذا الرجل الهندي الذي يشكل عيّنة من الرجال التي تجيز لهم معتقداتهم الدينية الزواج بأكثر من أربع، لتقدّم بالدليل سبباً جوهرياً من أسباب اتساع ظاهرة التضخم السكاني في الهند إلى ما لا نهاية. وقالت الصحيفة: «يمتلك منزلاً من أربعة طوابق يحتوي على 100 غرفة خصصها لزوجاته، لكنه يحتفظ بأصغر زوجاته قرب غرفة نومه، أما الأخريات فقد وضع لهن نظاماً بحيث تزور واحدة كل ليلة وفق جدول زمني محدد».

ولتلبية احتياجات أسرته الكبيرة، حرص شاننا على امتلاك مدارس الخاصة، إضافة إلى ملعب، ومصنع للثلاثاء، وحضانة لتربية المواشي ومزارع للدواجن وحديقة كبيرة يكفي إنتاجها من الخضار والفاكهة جميع أفراد الأسرة.

لكن شاننا لا ينسى منح زوجته الأولى مكانة خاصة في هذه العائلة الكبيرة، إذ تتولى زائفانجي (69 سنة) وضع جداول لـ«ضرائعها»، الـ36 تنظم من خلاله توزيع المهام المنزلية بشكل عادل مثل إعداد وجبات الطعام، والغسيل والتنظيف.

وعن حجم استهلاك هذه العائلة من الأطعمة يومياً، قالت الصحيفة: «تستهلك في الوجبة الواحدة 30 دجاجة، 60 كيلو غراماً من البطاطا و100 كيلو غرام من الرز».

اكتشاف مقبرة... .

جثتها لم تتحلل منذ 800 سنة

عثر أكاديميون روس على مقبرة في سيبيريا، تحتوي على جثث مَحْنطة تعود إلى 800 سنة، معتبرين أنها قد تكون المفتاح لاكتشاف أسرار الحضارة في العصور الوسطى التي لها صلات ببلاد فارس.

وفي التفاصيل، اكتُشف في منطقة زيلوني يار، 30 كيلومتراً إلى الجنوب من القطب الشمالي، 34 قبراً ضمت 11 جثة بجماجم محنطة أو مفقودة، و5 موميאות باقنعة نحاسية، أما باقي الجثث فقد غطيت بشكل متقن بجلود الحيوانات أو فراء الدببة.

فوجئ الروس بهذه الجثث المحنطة التي ترتدي أقمعة نحاسية، وإلى جانبها قطع أثرية ومجوهرات ثمينة. وكانت إحدى الرفات لرجل أحمر الشعر، محمّي من الصدر إلى القدم بواسطة طلاء من النحاس.

وأفادت صحيفة «ديلي ميل» البريطانية بأن هذه الرفات البشرية ما زالت لغزاً محيراً للعلماء الروس الذين لم يتمكّنوا حتى الآن من الكشف عن هوية أصحابها، مشيرة إلى أنه ستجرى دراسة جينية على بقايا الرفات في محاولة لحلّ اللغز واكتشاف سبب وجود طفلة بين كل هذه الجثث الذكور.



طفل يموت جوعاً

بسبب إدمان والده على ألعاب الفيديو

أعلنت الشرطة في كوريا الجنوبية، أنها أوقفت رجلاً يشتبه في أنه ترك طفله يموت جوعاً، بينما كان متسرفاً أمام شاشة ألعاب الفيديو. وأوقفت الشرطة الرجل يوم الإثنين الفائت، بعد العثور على جثة ابنه البالغ من العمر سنتين، متحللة في كيس قمامة في دايفو.

وتركت زوجته الطفل بمهدته بعدما ارتبطت بعمل في مصنع بعيد عن بيتها. لكنه كان يمضي أوقاته في مقاهي الإنترنت، ولا يتردد على منزله سوى مرة كل يومين أو ثلاثة لإطعام الطفل.

وفي السابع من آذار الفائت، وجد الأب طفله ميتاً فتركه شهراً كاملاً في مكانه، قبل أن يضعه في كيس للنفايات ويلقيه في حديقة مجاورة، بعد ذلك قدّم بلاغاً إلى الشرطة يفقدها.

وأظهرت دراسة رسمية أعدتها وزارة العلوم عام 2013، أن حوالي 7 في المئة من السكان البالغ عددهم 50 مليوناً، معرضون بشكل كبير لإدمان الإنترنت، وأن النسبة هذه ترتفع إلى 11.7 في المئة في صفوف المراهقين.

ومن شأن هذه القضية أن تشعل النقاش الدائر في البلاد حول إدمان على ألعاب الفيديو. ويعتزم البرلمان سنّ قانون يدرج ألعاب الفيديو على قائمة النشاطات المسببة للإدمان، على غرار المخدرات والكحول والميسر.

